كتب

يذهب الباحث الفرنسي في كتابه الصادر حديثاً عن «دار سوي» إلى أنّ ضياع فلسطين نتَج عن تواطؤ القوى الغربية أكثر من تخاذل العرب الواقعين تحت الهيمنة، وأنّ سبَب وهَنهم هو التغوّل الغربي الذي لم يترُك فرصة إلّا انتهزها لتقوية الكيان الصهيوني

فلسطين التي لم تضع و«إسرائيل» التي لم تنتصر

نجم الدين خلف الله

رغم شحّ الدراسات الفرنسيّة التي تُعالج القضيّة الفلسطينيّة، فإنّ ما يُنجز منها عادة ما يلتزم المنهج التاريخيّ، وهو ما يُفضي إلى إنشاء سرديّة خطيّة لا تستوعب بُنية هذه المسألة المُعقّدة التي لا تغني فيها المتابعة التطوُّرية إلّا قليلاً. هذا القصور هو ما سعى الباحث الفرنسي جان- بيار فيليو (1961) إلى تجاوُزه عبر العودة إلى هيكل القضيّة في كتابه الأخير: «كيف أُضيعت فلسطين ولم تنتصر إسرائيل؟: تاريخ صراع، من القرن التاسع عشر إلى القرن الحاديَ والعشرين»، الصادر عن «دار سوي» في باريس. وفيه يستعيد النزاع الأقسى في عصرنا على ضوء مقاربة بنيويّة تُنظّم عناصرَه التكوينية.

ولتحديد هذه العناصر، يرى الباحث أنها تتوزّع حسب تقسيم ثلاثي لكلٍّ من نقاط الضعف والقوّة. وعليه، خصّص الجزء الأول من الكتاب لاستعراض عوامل القوّة الثلاثة لدى الكيان الإسرائيلي وهي: المكاسب التدريجية التي استغلّها لتثبيت سيطرته على الأراضي المحتلّة، ومنها استناده أيديولوجيّاً على الصهيونيّة ذات الجذور المسيحيّة وهي ذاتها التي يعتمد عليها قادة الغرب كمرجعيّة دينيّة. إلّا أنهم يضفون على هذه المُعتقدات البالية غطاءً من القانون الدولي يُبرّرون من خلاله فظاعات الاضطهاد الذي تقوده القوى الإسرائيليّة طيلة تاريخها الدموي، وهو ما أدّى إلى «نقطة قوّة» أُخرى سمّاها الباحث «استراتيجية الأمر الواقع»، أي فَرْض «إسرائيل» حقائق على الأرض تُوهم العالَم باستحالة الرُّجوع عنها، مثل الاستيطان الذي التهَم خريطة فلسطين التاريخية التهاماً.

وأمّا نقاط الضَّعف التي هزَّت أركان القضية وأَوهنت نسيجها فتتمثّل في تعويل شعبها على «الوهم العربي»، وهمِ التضامن والنجدة الفعليَّين، ما أوقعهم في خيبات قاسية بسبب خيانة بعض الأنظمة العربية القضيّة ومزايداتها على مصائر الفلسطينيّين، حتى وصل الأمر ببعضها إلى تقتيلهم من دون رحمة. ومن مظاهر الوهن، النزاعات الداخلية، أي ما حصل ويحصل بين الفصائل والمجموعات والأحزاب السياسيّة في الداخل الفلسطيني، من توتّرات واحتراب على امتلاك أحقّية الدفاع عن الأرض مع فرض كلّ فريقٍ منها رؤيته الأيديولوجية التي تتراوح بين العلمانية والدين، انقسامات أدّت بدورها إلى سقوط العديد من الضحايا. وأخيراً، تعرّضت فلسطين لوباء «الكيل بمكيالَيْن»، حيث أدّت مختلف المسارات الدبلوماسيّة التي قادتها «الأمم المتّحدة» والقوى الإقليميّة والدولية إلى إنهاك الشعب الفلسطينيّ وهضم جانبه.

وخصّص فيليو خاتمة الكتاب لاستعادة وقائع «طوفان الأقصى» وآثاره، إلّا أن إحصائياته توقّفت منتصف كانون الأول/ ديسمبر 2023.

وهكذا، استعرض صاحب «مركز العوالم» (2021) هذه المظاهر المتداخلة عبر المنهج البنيوي مع ترتيب الأحداث ضمن منطقها التطوّري، ما يجعل الوقائع تتالى حسب جريانها في التاريخ، وهو ما قاده، في جُرأة غير معهودة، إلى تعديد الفظائع والفضائح التي ارتكبتها «إسرائيل» خلال العقود الماضية، متوسّلةً القوة العسكريّة تارةً وبجماعات الضغط والدعم الغربي أطواراً. لكن ما اعتُبر نقاط ضعف ما هو إلّا امتدادٌ للغطرسة الإسرائيليّة وتجلٍّ مختلف لنفوذها وتأثيرها كعامل إنهاكٍ.

ولئن ركّزت هذه التحليلات على الأراضي الفلسطينية، فإنها استدعت بعض البلدان الأُخرى، كسورية والأردن ولبنان، وغيرها ممّن طاولها شرَر الاحتلال والظُّلم، ما يُشير إلى ترابط المسألة الفلسطينية بالوطن العربي مشرقاً ومغرباً، وتجذُّرها ليس فقط في وجدان الأمّة وإنما في جغرافيتها وتاريخها وأراضيها.

يرى التعويل على حكّام عرب مُرتهنين خطأً استراتيجياً

رغم جرأة نقده إلّا أنه يتعامل مع «إسرائيل» كأمر واقع

انشغال بتواريخ عربية

Jean-Pierre Filiu أستاذ جامعيّ فرنسي، بدأ تحصيله العلمي في «معهد العلوم السياسية» بباريس، ثم تخصّص في دراسة تاريخ المنطقة العربية في «المعهد الوطني للغات والحضارات الشرقية»، من مؤلّفاته: «ميتران وفلسطين» (2005)، و«حدود الجهاد» (2006)، و«الثورة العربية: عشرة دروس من انتفاضة ديمقراطية» (2011)، و«تاريخ غزّة» (2012)، و«سيّدة دمشق» (2015)، و«العرب: مصيرُهم ومصيرنا» (2015).

عقيدة الغرب اللاواعية

إلّا أنّ القناعة التي تُغذّيها هذه الاستعادة، من دون أن تُصرِّح بها، هي أنّ ضياع فلسطين نتَج عن تواطُؤ القوى الغربية أكثر من تخاذل العرب، فهُم أنفسهم واقعون تحت الهيمنة الغربيّة. وسببُ وهنهم الأساسي التغوّل الأورو-أميركي الذي لم يترُك فرصة إلّا انتهزها لتضييع فلسطين وتقوية الكيان الإسرائيلي على أنقاضها. وكأنما ما يجري اليوم من إبادة يجري انتقاماً من هزائم جيوشه الصليبيّة التي تُحرّك الغربَ، عقيدة لاواعية مفادُها: تعود فلسطين لأيٍّ كان ولا تعود للمسلمين. جرح غائرٌ في ضمير الغرب تُؤجّجه عقائد دينية مسيحانية، بالكاد يحجبُها خطاب سياسي... فجٌّ وانتقائيّ.

وهكذا، يفضح هذا الكتاب عشرات المؤامرات والخيانات والأاعيب التي حاكها أساساً الغربيّون طيلة العقود الماضية، كما يستعيد جملة من حقائقَ معلومة لكنّها مطويّة عمداً، تُظهِر حجم التواطؤ الأميركي والأوروبيّ، ومن آثارها القاتلة ما نشهده اليوم من إبادة في غزّة أمام صمت البسيطة بأسرها. كما يُشدِّد المُؤرّخ الفرنسي على مظاهر الخذلان العربي التي تتالت منذ الخطوات التطبيعية الأُولى معتبراً هذا الخذلان أبرز نقاط ضعفها، ومن الخطأ الاستراتيجي، في رأيه، التعويل على بعض القادة العرب الذين لا يملكون قراراتهم بحُكم ارتهان وجودهم بالأجندة الأميركيّة في المنطقة.

ومع أنّ هذا الكتاب مُوجّه للجمهور الفرنسي، فهو يُضيء محطّات عديدة منسيّة في تاريخ «الصراع» (المشروع الاستعماري) الأمرّ في عصرنا. إلّا أنّ أسلوبه وأجهزته التحليليّة لا تخلو من بعض المواقف الذاتيّة والمفاهيم المُبهمة، فهو يصف مثلاً بعض مظاهر المقاومة بكونها «إرهاباً»، والمصطلح، رغم شيوعه، توصيف سياسي وليس قانونيّ، تُوظّفه الأطراف المتناحرة حسب غاياتها. كما «يُشرّع» الباحث نسبيّاً للحضور الإسرائيلي التدريجي بوصفه «أمراً واقعاً»، وليس باعتباره، وهذه الحقيقة، جرائم احتلال بتفريعات ودرجات مختلفة (انتداب، استعمار، اغتصاب للأراضي، طمس للثقافة، وإبادة منهجية...).

صمود يُنسي نقاط الوهن

ومع أنّ الكثير من المعلومات الواردة في هذه «المحاولة» متاحٌ للقارئ العربيّ ومألوف لديه، فإنّ عرضها حسب المنهج البنيوي يُسهم في تنوير الجمهور الفرنسي الواقع تحت براثن السرديّة الإسرائيليّة التي تتبنّاها بشكل كبير السياسة الرسمية. وأضعف الإيمان أن يسلّط الضوء على ما لا يُعرَض في وسائل الإعلام وعلى ما لا يُقال في القنوات الرسمية.

لم تضع فلسطين ولن تضيع من ضمائر الشعوب العربية، مهما أغرق قادتُها في الخذلان والتطبيع، لأنها قضيّة عقيدة وأرض تكتنفها القداسة وستظلّ حيّة في الوجدان العامّ. وإن خبا ألقُها مؤقّتاً فليعود من جديد بمُعجزات صمودٍ تُنسي نقاط الوهن جميعها. ولم يضع ما ضاع من فلسطين بتقصير من أهلها، بل أُضيعَ باستكبار أعدائها الذين داسوا على أبسط قواعد القوانين الدوليّة والقيم الأخلاقيّة التي ما فتئوا يُنظّرون لها. كما لم تنتصر «إسرائيل» في هذه المعركة مع أنّها كسبت بعض حروبها، بل إنّها انهزمت بسبب الشرّ المُطلق الذي تُمارسه على الأبرياء. ولذلك ستفشل كلّ المقاربات، أكانت تاريخيّة أم بنيوية، ما لم تسعَ إلى إظهار السقوط الأخلاقي لهذا الكيان وللغرب الذي يقف وراء الاضطهاد والطمس والتقتيل. ستكون مثل هذه الكتب مجرّد امتداد للمَحكيّة الظالمة ما لم تنتقدها وتُظهر تهافتها عبر وقفة أخلاقية - سياسية لا تلين ولا تماري.

(كاتب وأكاديمي تونسي مقيم في باريس)

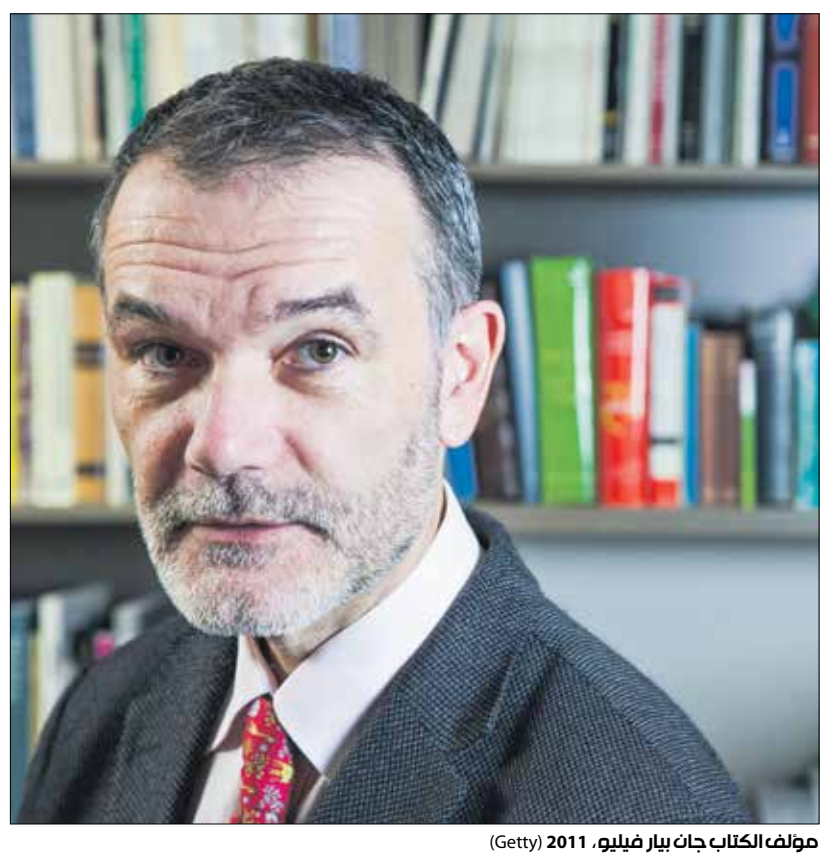

مؤلف الكتاب جان بيار فيليو، 2011 (Getty)

نظرة أولى

تواصل «دار الرافدين» تقديمها لأعمال الشاعر والروائي المغربي عبد اللطيف اللعبي (1942) المكتوبة في الأصل بالفرنسية. تصدر هذه الأيام طبعة لكتابه «**رامبو وشهرزاد: أعمال مسرحية**». من غلاف الكتاب نقرأ: «يُخلخل ظهور المسرح في أعمال عبد اللطيف اللعبي هوية الأجناس الأدبية مُنتقلاً بها من وضعية الثبات إلى حالة الترنُّح، فاقتحام الشعر لمسرحه، أو اقتحام العنصر الشفوي لشعره، ينبعان من الفرادة المعكوسة نفسها لتوسيع هوامش الإبداع الأدبي: فبمقدار ما تسعى مسرحة القول الشعري إلى تقريبه من الواقع، تهدف شعرنة النص المسرحي إلى تحريره منه».

عن «المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات»، صدر كتاب «**ديار بئر السبع؛ جنوب فلسطين العثماني: الأرض والمجتمع والدولة**» للباحث الفلسطيني أحمد أمارة. يتناول المؤلّف التحوّلات الجيوسياسية والإدارية والقانونية التي مرّت بها منطقة بئر السبع خلال فترةٍ اتّسمت بإصلاحات عُثمانية متزايدة، وبأطماع استعمارية، شكّلت حوافز لتغيير جغرافيتها واقتصادها، ولترسيم حدود سياسية جديدة، تركت بصمتها في مجالات مختلفة حتى اليوم. يتحدّى الكتاب الأبحاث النمطية التي تُصوِّر المجتمعات البدوية على أنها مجتمعات منعزلة تعيش في اللادولة واللامؤسسات.

«**الأقلمة السردية مخابرها الغربية – مناشئها الشرقية**» كتاب جديد للباحثة العراقية نادية هنداوي صدر عن «مؤسسة أبجد للترجمة والنشر». يطرح العمل إشكاليات تاريخية ونظرية، منها أن الواقعية لم تكن هي القاعدة التي عليها شُيدت التقاليد الصلبة والراسخة في الرواية، وكيف أن دور مؤرخي الأدب ومنظريه ونقاده كان كبيراً في إشاعة فكرة أن هذا الجنس أدبي أوروبي وأنه وريث الملحمة، لافتاً إلى أن القاص العربي كان في القرن التاسع عشر يبني قصصه في العموم على ما عرفه واعتاد عليه من تقاليد السرد العربي القديم، عارفاً أهمية القصّ في التوعية بالمصير.

«**سنوات الطين: تونس من الديمقراطية الكسيحة إلى الاستبداد الشعبوي 2019 - 2023**»، عنوان كتاب الباحث والناشط السياسي التونسي عدنان المنصر، الذي صدر عن «منشورات سوتيميديا». يُتابع الباحث ما بدأه في كتابه السابق «سنوات الرّمل» (2021) الذي خصّصه لمرحلة ما بعد ثورة عام 2011 حتى 2019، حيث يحاول وضع قراءة منهجيّة لراهن البلاد السياسي، عارضاً لأزمات الانتقال الديمقراطي في تونس بعد عودة الاستبداد بطبعة شعبوية جديدة إلى سدّة الحُكم. اعتمد الباحث الاستعارة الجيولوجية في عناوين الكتابَين تلخيصاً للتمييز بين مرحلتَين سياسيّتَين.

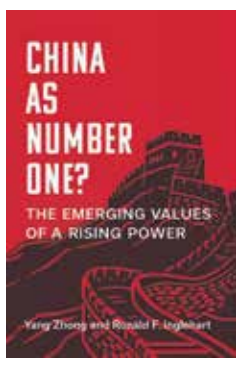

«**الصين رقم واحد؟ القِيم الناشئة للقوّة الصاعدة**» عنوان الكتاب الذي صدر عن «منشورات جامعة ميتشغان» للباحثَين يانغ تشونغ وورونالد إف إنغلهارت. يستكشف العمل القوى الناعمة للصين من خلال عيون المواطنين الصينيِّين أنفسهم، وكيفية نظرتهم إلى صعود بلادهم على الساحة العالمية خلال الأربعين سنة الماضية، من خلال استخدام بيانات ومُسوحات جديدة تُحلّل بصورة أساسية القِيم الاجتماعية والسياسية التي يتوافق حولها الصينيّون، ويدرس أيضاً التغيّرات المستمرّة في هذه القِيم وكيفية تطوّر الهوية الوطنية الصينية وانعكاساتها في الأدب والفنون والرياضة.

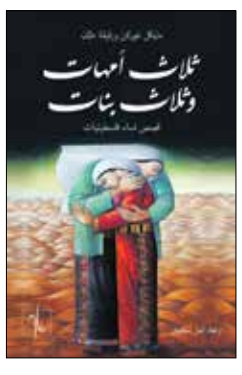

يُقدّم كتاب «**ثلاث أمّهات وثلاث بنات: قصص نساء فلسطينيات**» لمايكل غوركن ورفيقة عثمان، الذي صدرت الطبعة العربية منه عن «منشورات غاف» بتوقيع المترجمة أمل إسماعيل، لمحةً عن الحياة الفلسطينية اليومية تحت الاحتلال الإسرائيلي كما تسردها نساءٌ فلسطينياتٌ من أجيال متعاقبة، ومناطق مختلفة. نجد في الكتاب رواياتٍ نجح مُحقّقاها في مزاوجة خطابها النظري والأكاديمي بالشّهادة الشّخصية، إذ نرى مسرَّات النساء من الداخل في خضمّ حياتهنّ المنزلية، ونصاحبهنّ في أحلكِ الأوقات، ونتلمّس مشقّة تهجيرهنّ عن منازلهنّ قبل أن تُدمّرها قوّات الاحتلال.

يحتوي كتاب «**سِفر الخروج: ثورة العالم القديم**» لعالِم المصريّات الألماني يان أسمان، الصادرة ترجمتُه عن «منشورات الجمل» بتوقيع عبد الحليم عبد الغني رجب، على مشاهد مفتاحية من تاريخ المُقدَّس. فمتى نشأت كلّ هذه المرويّات؟ وأي أصول أو متوازيات قديمة موجودة لها في الحضارة المصرية أو في الحضارات الشرقية القديمة؟ يحاول الباحث الإجابة عن كلّ هذه الأسئلة انطلاقاً من أحدث نتائج الأبحاث في مجال علوم الآثار، وهو في هذا ينقّح نظريته حول مفهوم الوحدانية التي حظيت بنقاش طويل، ويشرح أيضاً التبعات الثورية لهذا المفهوم على التاريخ.

صدر عن «مركز دراسات الإسكندرية وحضارة البحر المتوسط» كتاب «**متصوّفة الإسكندرية ومنشآتهم المعمارية في العصر الإسلامي**» للباحث المصري أيمن الجوهري. يعود الكتاب إلى جذور مفهوم التصوّف الإسلامي ونشأته في نهاية القرن الثاني الهجري/ القرن الثامن الميلادي، ويناقش العوامل الفكرية التي أثّرت فيه على مدار القرون الماضية، كما يستعرض تاريخ التصوف والمتصوفة في الإسكندرية منذ القرن السادس الهجري وصولاً إلى القرن الثالث عشر، حيث يضيء منشآت التصوّف في المدينة كالرباطات والخانقاوات والتكايا والقباب الضريحية مستعيناً بالوثائق التاريخية.